

الفصل الثامن

خضوع بحسب المزاج

أنا غير مضطر إلى طاعتك

أحد العادات المزعجة جداً عند بعض الأطفال ميلهم إلى الخضوع حسب المزاج. هل حاولت مرة أن تؤدبي طفلاً، فقال لك بقلّة حياء: «أنت لستِ أمي؛ ولا يحق لك أن تأمريني بعمل شيء»؟! (على الأغلب، حتى أمّه لا يمكنها أن تأمره بعمل أي شيء). يبيّن ذلك الرّد أنّه بغض النظر عن طاعة الطفل لوالديه، فإنه في عمق أعماقه عاصٍ متمرد. هو غير خاضع للسلطة عموماً.

إذا أحسّ الطفل بغدر أحد الكبار فقاوم اختطافه أو ما شابه ذلك، وكانت هذه الجرأة في محلها. لكن لا تخدع نفسك فتفتخر بمثل هذا التصرف من جانب طفلك كما لو كان ولاءً أو حذراً. إنه تمرد، والتمرد «كخطيئة العِرافة». حتى عندما يحذّر طفل زميله أن يعمل الصواب، فيجب أن يخضع له.

يوجد بالسليقة في كل طفل إدراك فطري للواجب بهدف المصلحة العامة. هذا قانون غير مكتوب يظهر عندما يقول طفل صغير إلى طفل آخر: «غلط أن تعمل ذلك». الصّمير الذي لم يتبلّد بعد يحث الطفل دائماً على التوافق مع هذا المقياس الفطري. وعندما يثور طفل على توبيخ نظرائه، هو لا يثور على نظرائه بل

على «حكم القانون» بشكل عام. لا، الطفل لا يدرك «حكم القانون» (مثلته مثل أكثر البالغين)، بل لعله لا يعرف معنى كلمة «التمرد»، لكنّه رغم ذلك يتصرّف بالضبط مثل الشخص البالغ عندما يكون في حالة تمرد. الطفل يخالف ضميره الشخصي، فيعاني من الإحساس بالذنب. ثم يبنّي مانعاً من الكبرياء وحبّ الذات، فينقلب ذلك إلى اشمزاز من الذات. الطفل الذي يلقي تشجيعاً أو ترخيصاً بالاستمرار على هذا السلوك، سيؤول حتماً إلى الانحطاط الأخلاقي.

الأخت الأكبر سناً

لما كانت ابنتاي الصغيرتان في عمر التاسعة والإحدى عشرة، استضفنا بعض الأطفال وعُهد إليهما بمجالستهم. وحدث أن التقطت طفلة عمرها سنتان شيئاً ممنوعاً، فأخبرتها أختها الأكبر سناً، وهي آنذاك بنت أربعة عشر عاماً، أنه لا يجوز لها اللعب به ومضت لتُبعده. فما كان من الطفلة سوى أن انفجرت في الصراخ. (هذه كانت عاداتها كلما أرادت الثأر من والديها - أمّا هما فاعتبرا مثل هذا السلوك طبيعياً).

استولت الدهشة على طفلتي بنت التسعة أعوام من هذا السلوك الغريب، فجاءت وأبلغت أمّها. ولما حققت زوجتي «ديبي» في الأمر وجدت أن البنت الصّغيرة كانت ساخطة على أختها الكبرى، التي اعتبرتها بلا سلطة على سلوكها. واعترفت بنت الرابعة عشر أنه لا يُسمح لها بتأديب أختها الصغرى. فبدأت زوجتي جلسة تدريب

فوراً، إذ أخذت الشيء المحرّم وأعادته إلى مكانه على الأرض أمام الطفلة. لعلك تسأل: «لكن أليس ذلك إغراءً للطفل!»، فأقول: ألم يفعل الله نفس الشيء مع آدم وحواء؟

كفّت الطفلة فوراً عن الصّراخ، ثم نظرت إلى أختها نظرة انتصار ومدّت يدها إلى الشيء. فقالت ديبى: «لا، لا يمكنك أن تأخذه». وعندما أمسكته الطفلة على أية حال، قالت ديبى: «لا»، ثم لسعتها على يدها بعود من الخشب وتركت الشيء قريباً من متناول الطفلة. لكن نظراً لعدم إبعاد الشيء خارج متناولها، افترضت أنه لا يزال في حدود المسموح. وعندما مدّت يدها مرة ثانية، تلقّت لسعة وأمرأً هادئاً. ثم بعد مرة أو مرتين تلقّنت الطفلة درسها.

ثم سلّمت ديبى الشيء للأخت الكبرى وقالت لها أن تضعه أمام الطفلة وتقول لها: لا. فلما مدّت الكبرى الشيء ناحية الطفلة، بسطت الصغرى يدها إليه، ثم جذبتها إلى الخلف بسرعة عندما قالت لها أختها الكبرى: لا. ثم تُرك الشيء المحرّم على الأرض في منتصف غرفة اللعب، حيث لعبت حوله بقية اليوم دون أن تمسّه. وظلّت البنت الصّغيرة مبتهجة واجتماعية بقية اليوم بعد أن نعّصت كل شخص من قبل بطلباتها.

إبقاء التمرد حياً

السماح لطفلك بوقت من التمرد والعناد، سواء كان ذلك في حضور الأصدقاء، أو الأجداد، أو الأخ أو الأخت الأكبرين، أو

جلسة الأطفال أو الأقران، معناه السماح بالتمرد والعناد بالبقاء حياً. فبقى بذور التمرد إلى أن تزهو عندما تقل الضغوط الخارجية. وربما سيطرت على أفعالهم الخارجية، لكنك لا تبني أخلاقهم.

في عائلة خاضعة لنور الله، يجب أن يكون الأطفال في خضوع عام لمبدأ الطاعة المتبادلة عند إعطاء وقبول التوبيخ الواحد منهم للآخر. في الكنيسة نحن جميعاً مسؤولون أمام بعضنا البعض، ويجب أن يكون الأمر كذلك في البيت.

علاوة على ذلك، يتعلم الأطفال الأكبر سنًا المسؤولية عندما يُعهد لهم برعاية الأطفال الأصغر سنًا. وكم يخفف ذلك العبء عن الأم! على أن يُسمح للأطفال الأصغر بمحكمة استئنافية دائماً، بمعنى أن يُؤخذ الطفل الأكبر سنًا إذا أساء ممارسة سلطته. كذلك يتعلم الأطفال الأصغر سريعاً أن الشكوى التي لا أساس لها من الصحة ضد تأديب الطفل الأكبر تستوجب عقاباً مضاعفاً. والمسؤولية الموكلة للطفل الأكبر هي تدريب قيم، علاوة على أنها تقلل التوتر، حيث أن الطفل الأكبر لا يُترك عاجزاً أمام أخيه أو أخته الأصغر الجامح.

رحمة، أيها الأم الحبيبة

راقبت عدة مرات ذلك الموقف الصعب حين يقوم أحد الوالدين (عادة الأب الأقل عاطفية) بتدريب الأولاد على الطاعة، بينما يشفق قلب الوالد الآخر (عادة الأم) فتهاون وتتخاذل في

المطالبة بالطاعة الفورية. وأثناء النهار بينما الأب غائب، تستجدي الأم و«ننق» وتهدد وتوعّد، وبعد فترة يثور غضبها بما يكفي لإرغام الأطفال على الإذعان مؤقتاً.

وحالما يرجع الأب إلى البيت من العمل تفتحه في تمرّد أطفاله وعصيانهم. وعندما يصفع الأطفال، ينوحون ويتظلمون. أمّا الأم الضعيفة عاطفياً فتتألم حين ترى ذلك «الغريب» يسيء إلى أولادها ويقتحم حياتهم، فتتدخل أمام الأطفال وتتحدّى أحكامه. وسرعان ما يتعلّم الأطفال كيف يستغلون عواطف الأمّ ضد «عدالة» الأب. وكلما ازداد نقد الأمّ للأبّ وتسبّبها على الأطفال، أمعن الأطفال في الكذب وتعلّموا استغلال النزاع بين والديهم.

يرى الأب أنّه يفقد السيطرة فيتحمّل على الأطفال، أمّا الأمّ، التي تحاول موازنة الموقف، فتتهاون أكثر وأكثر، وإذا بالفجوة بينهما تتسع. ويكون الأطفال هم الخاسرون في النهاية.

لا يجب أبداً أن يصحّح أحد الوالدين حكم الآخر أو يناقشه في حضور الأطفال. من الأفضل لطفلكما التغاضي عن ظلم مؤقت عن أن تحطّم قاعدة السلطة من خلال انقسامكما العلني. يظهر ذلك عندما يستعطف طفل أمه حين يوقع عليه أبوه العقاب. عندما يجري الطفل إلى الأمّ، يجب عليها مواصلة التأديب بنفس الدرجة. وإذا حاول الأب إطعام طفله، فتوسّل الطفل إلى أمّه، يجب على الأمّ أن تردّ بصفه صفعاً مضاعفاً؛ على نواحه وعلى عدم تناوله طعامه. حينئذٍ سيكون سعيداً بتعامله مع الأب فقط.

قضينا على هذا الميل إلى الخضوع بحسب المزاج مبكراً. فعندما كان واحداً منّا يصفع طفلاً فيتوسّل الطفل إلى الآخر، كان الوالد الآخر يجيء ويشارك في التأديب. تكفي مرتان أو ثلاث مرات على هذا النحو لإقناع الطفل بأنّ التعامل مع واحد أفضل من اثنين!

بعد صفع الطفل، لا يجب أن يُسمح له بالهرب إلى الوالد الآخر طلباً للشفقة. من المهم أن يجد عزاءه في الوالد الذي صفعه. عندما يعاقبنا الله، إنما يريد أن يجذبنا إلى نفسه، لا أن يدفعنا إلى الذهاب إلى آخر.

أيتها الأم، إذا اعتقدت أن الأب عنيف جداً في تأديبه، هناك شيء يمكنك عمله. فبينما هو غائب، طالبي أطفالك بطاعة فورية وكاملة، وتوقعيها منهم ودربّيهم وأدبّيهم عليها. وعندما يرجع الأب إلى البيت، يجده مرتباً وهادئاً. حينئذٍ سيطيع الأطفال أباهم دائماً، فلا يحتاج إلى تأديبهم بنفسه.